لسان الزمان

الدين والنهضة

الاخلاقية الحديثة

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

العقوبات الدولية

الادبية والمالية والاقتصادية

المسيح والنهضة
الاخلاقية الحديثة

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

﴿ التطور في العقائد والعادات ﴾ : ليس من شأن الاجتماعي اذا ذكر الاديان بصورة مجملة ان يحصر كلامه في الاديان كما نزلت على مؤسسيها لان الشعائر والعقائد والاعمال في الامة على كرّ الزمن قد لا تبقى على صيغتها الاصلية بل ربما ارتقت عن هذه الصيغة او انحطت بحسب العوامل والطوارىء وقلما كانت ثابتة من غير تعديل او تبديل. ويهمنا ان نقرر هنا ان قابلية التطور في العقائد وما يتبعها من العادات المتجلببة بجلباب التقديس قابلية عظمى حتى ان المتتبع ليرى انتقالاً يكاد يكون فجائياً من النقيض الى النقيض باسم العقيدة الواحدة نفسها ؛ وان « البدعة » التي تضطرب لها افئدة المؤمنين في الجيل الواحد قد تصبح قاعدة من قواعد الايمان في الجيل الآخر ولاسيما اذا قدّر لها رجل مبجل يفتي بان لها اصلاً في النصوص القديمة ، وقد لازم التعصب في المجتمع الازياء خصوصاً لباس الرأس واثار في البلدان الشرقية « حروباً » حامية الوطيس لا تزال لها بقية باقية ، ؛ وذكر لنا من تقدمنا ان تغيير الاحذية من القديمة الى الحديثة في عاصمة البلدان السورية احدث هياجاً عظيماً كاد ينتهي بفتنة حمراء ؛ وفي اوائل القرن الحاضر ضمني ورجلاً من كبار الاعيان في بيروت مجلس ذكر المجتمعون فيه حديث الفتوى بلبس القبعة كما نقل لنا عن لسان الشيخ (محمد عبده) يومئذٍ فارتعش واضطرب وامتقع لونه واظهر من النفرة ما يظهره الترك الكماليون اليوم من رؤية الطربوش على رأس السوري او المصري او العراقي !

ولا يقتصر هذا التطور على الشؤون التي اصبحنا نعدها ثانوية لا يؤبه لها بعد مرور الزمن عليها، بل يتناول الشؤون التي نعدها اولية ، ولا ادل على ذلك في موضوع العقيدة الدينية من ترقّي مذهب (التوحيد) في لب البلدان البروتستنتية وتمتعه بالحرمة اللائقة به مع كل ما احدثهُ من التغيير في العقائد التي اعتبرتها الاجيال السالفة جزءاً لا يتجزأ من التعاليم المسيحية ، ورأينا في اميركا من اتباع هذا المذهب الجديد والمؤمنين به من لا يقلون شأناً عن زملائهم واخوانهم الموحدين السابقين امثال (لونغفلو) و (امرسون) و (هوثورن) و (جفرسون) و (لينكون) من الاموات وغيرهم ممن زينوا اسم الولايات المتحدة واعلوا مقامها ، ويقوم مذهبهم فيما يقوم عليه من نقد العقائد المتوارثة المعقدة على وحدانية الخالق وحدانية منزهة وانكار التثليث؛ وعلى اخوة البشر وان النجاة تكون بالاعمال لا بمجرد الايمان فقط وان الارتقاء البشري سنة ثابتة الى الابد

ونرى في الشرق تحت اعيننا تبدلاً اساسيًّا في وضع من الاوضاع المقدسة مثّل اخطر الادوار في حياتنا الاجتماعية وهذا الوضع هو الحجاب ، فالذين يتمسكون به يغالون في شأنه مغالاة تجعلهم في

مصاف الاركان الجوهرية التي بني عليها الاسلام وقد لا يقل في نظرهم عن اقدس المقدسات ، واما اهل السفور فلم يخلعوا الحجاب فقط بل يدعون اليه علناً بقولهم انهُ مخالف للحياة الاسلامية الاولى مخالفة بديهية ! وكيفما كان الحال فرور المرأة المسلمة اليوم سافرة في اهم شارع من شوارع القاهرة وعلى رأسها القبعة لا يستوقف نظر احد، ولو اقدمت على مثل هذا العمل قبل خمسين او ستين سنة مثلاً ما فازت بالسلامة . والذين يقرأون كتاب (تحرير المرأة) في ايامنا هذه لا يشعرون بشيء من الهزة العنيفة التي احدثها يوم ظهوره، ذلك لأنهم رأوا باعينهم من الافراط في العرى ما جعلهم يترحمون على اعتدال قاسم بك امين والسفور الذي دعى اليه

وفي النازية الالمانية اليوم نزعة اجمعت الكنيسة المحافظة على وصمها بالزندقة والوثنية وغير ذلك من الفاظ الاستنكار، ولكن عالماً خبيراً بالنشوء الاجتماعي قال لي : من يدري ما عسى ان يكون تاريخها في المستقبل؟ وقد يكتب لها ان تنتشر من المانيا الى سائر العالم المسيحي كما انتشر مذهب (لوثر) في القرون الماضية ، ولكن من المحقق ان الصهيونيين واقفون اليوم في صف المدافعين عن قواعد الايمان الكنسي وهم اشد حرصاً على مقاومة (هتلر) « وبدعه » من رعاة الكنيسة الانجيلية نفسها

﴿ السخافات الباقية من العقائد الخالية ﴾ : من اعجب الظواهر الاجتماعية ان يبلغ البشر هذا المقام الرفيع في الارتقاء العقلي وتبقى بعض العقائد والشعائر الابتدائية السخيفة ملازمة له . واذا كان لها في احد الايام الغابرة ما يجوزها فليس لها في يوم الاستنارة العقلية مسوّغ ما . واعجب من ذلك ان يدأب بعض « المؤمنين » على التمسك بها وممارستها على رغم جميع المناهضات والمقاومات التي يبديها العقلاء الذين هم اقرب الى فهم الدين والاحاطة بروحه ونصوصه . وقد أثر اشد الاثر في استدامتها وتعلق الناس باهدابها ان بعض كبار الاخصائيين من اهل العلوم والفنون العملية الحسية وائمة الصناعات ممن لم يسبق لهم اي اشتراك في شيء من العلوم الاجتماعية والتاريخية والدينية ما برحوا يحفلون بها ويطأطئون رؤوسهم اجلالاً لها وتعظيماً ، فتراهم وهم أئمة مبرزون في فروعهم كالاطفال في هذه العلوم . فلا غرو ان يكون لهم من نبوغهم في المنطقة التي اختصوا بها صوت مسموع لدى العامة في منطقة لما تطأها اقدامهم، ورأي مطاع في شأن لما يكن من شؤونهم ، لان العامة وبالاسف يظنون ان من اتقن شيئاً فقد اتقن كل شيء ، او من صنع آلة ميكانيكية حافلة بالحيل الدقيقة مثلاً او اخترع دواء ناجعاً لمرض عضال حار فيه الاطباء فان عمله مستمد من منبع عميق لاطاقة للبشر ان يغترفوا منهُ ، فرأيه في السياسة او في الاجتماع او في الدين يجب ان يكون حجة يقارع بها الخصوم . وقد طرأ هذا التحول السريع بتقدم العلوم الحسية وتمتع اصحابها بالمقام الرفيع في المجتمع، وكان هذا المقام عادة وقفاً على المشتغلين بالشؤون العقلية والروحية . وحضرت مرة مجلساً حاول فيه احد الذين يتغذون اسماء الرجال الاخصائيين المشهورين في الفروع التي عانوها ان يبرهن عن سخافة كان يؤمن بها امير الماء (نلسن) — وهي انهُ سيموت في يوم معين حقيقة الايام — على صحة الهواجس

« الاثيرية » او الروحية التي تخامر النفوس » وكذلك استخدم غيره اسم (باستور) لتأييد بعض الشعائر والعقائد البالية ، وانني افهم كل الفهم ان يكون كلام (نلسن) حجة في القيادة البحرية وكلام (باستور) حجة في الجراثيم ولكنني لا أفهم ابداً كيف يكون كلامهما حجة على صحة المواجس النفسية والشعائر التقليدية ، ولا اقرب الى المعقول ان يستشار (توماس اديسون) في قواعد اللغة العربية ويهتدى برأي (رونتجن) في تاريخ حياة (توت عنخ امون) من ان يستشار (نلسن) او (باستور) في المشاعر الوجدانية والعقائد الدينية . على ان البلية كانت اعظم والطامة أشد وأحكم لما كان المنتسبون الى العلوم المعنوية يدعون السيطرة على العلوم المادية والتحكم في اصحابها ، فلهم مثلاً ان يحزوا رقبة العالم الفلكي الذي يجرؤ على القول بكروية الارض ودورانها !

على ان الذي سيبقى عثرة في سبيل الاقناع بما حدثنا واقامة الدليل على ما بينا هو ان العلوم الاجتماعية اجمالاً ليست من الضبط والاحكام في المقام الذي تتمتع به العلوم الطبيعية فيجوز لكل ثرثار ان يدعي تلك الى اجل واما هذه فحججها قريبة وحبل التدجيل فيها قصير

ثم ان العقبة الكأداء التي لما يعرف المجتمع كيف يتغلب عليها ويأمن الانتظام بها هي السلطة القاهرة التي تتمتع بها العادة المستحكمة ولا سيما متى كان لها اتصال بالحرمة والشرف واللياقة والمروءة والاباء وغير ذلك من معاني الاعتزاز والسمو ، وقد تصبح مثل هذه العادة — على ما قد يكون فيها من الهمجية والفحش والظلم — مقياساً في الاخلاق وكمالاً في العقيدة . وانني لأضرب على ذلك مثلاً من الاقوام التي تعيش عيشة ابتدائية فان اوضاعها البسيطة الخالية من تعقيد الحضارة قد ترشدنا الى فهم الاوضاع الحاضرة في ارقى الاوساط المدنية . قال الاستاذ (هوبكنس)[1] عن علاقة الدين والعادة بالاخلاق إن قانص رؤوس من جزيرة (بورنيو) قص القصة الآتية التي تدل على تحكم عادات السلف في الخلف وكيف ان الاخلاق انما هي السنة التي درج عليها الآباء والجدود والتي اكتسبوها للفائدة التي استفادتها العشيرة من تطبيقها والسير عليها . قال الصياد : كنت شديد التعلق بربيبتي العجوز ، وقد حان الزمن الذي قال لي والدي فيه : يا ولدي لقد كبرت وباشرت سن الرجولة فهلم واقتل قتيلاً » كما هي العادة في تلك الاصقاع لاثبات الرجولة . قال الصياد « وحكم الشرع عندنا ان النساء العجائز اللاتي لم يعدن يصلحن لشيء ان يذبحن . فدلني والدي على ربيبتي العجوز وكانت جالسة لوحدها وقال لي « اني صغير السن فلا استطيع ان اقتل رجلاً ولكن يجب ان اعرن عليها فاعطاني قوسي وسهامي وقال لي هلم وارمها . اما انا فلم ارد قتلها ولكنه اصر علي وقال لا بد من ذلك فرميتها بسهم ولكن طاش فلم يصبها فادركت هي الموضوع وأخذت في البكاء وانا اخذت في العويل فاغتاظ والدي وامرني ان امتنع عن عويلي واكفكف دمعي واضبط الهدف وذكر لي انه من الشر المعيب ألا اقتلها . حينئذ اخذت ارميها رمياً متواصلاً ومع انها اعولت فلم

[1] Origin & Evolution of Religion, P. 245

التفت الى عربلها وما زلت ارميها حتى قتلتها . وكانت عندي في مقام والدتي ولكنني لم ابال . ثم ان والدي قال لي يا ولدي الآن اصبحت رجلاً صالحاً وقد تحملت عمل الرجال وقت بالحق »

﴿ الاخلاق الايجابية ﴾ حدث عند الاجتماعيين المتأخرين تطور في الانجاه الاخلاقي لا بدّ من الاشارة اليه هنا ، وهذا التطور هو الاهتمام بما يسمى « الاخلاق الايجابية » لا الاكتفاء « بالاخلاق السلبية » — يعني اننا كنا في الماضي نعد الكمال في الرجل ان يمتنع فقط من اتيان بعض الموبقات كالخمر والميسر والزنا وغيرذلك من المحرمات التي لا يشك احد في فضيلة الابتعاد عنها ، وان يسير في حياته سيرة المسكنة والخضوع « والدروشة » وكم رأينا في الحوانيت الابيات الآتية معلقة على الجدران وهي : —

اذا شئت ان تحيا سعيداً من الاذى وحظك موفور وعرضك صين
لسانك لا تذكر به عورة امرىءٍ فكلك عورات وللناس ألسن
وعينك ان ابدت اليك معائباً فصنها وقل يا عين للناس اعين
وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى وفارق ولكن بالتي هي احسن

لم تعد مثل هذه الاخلاق — على ما فيها من سحر وانسانية — متناسبة للنشاط الاجتماعي ، فهو يتطلب الجرأة والاقدام والعمل لا الانزواء في الزوايا ولا وضع اليدين على الرأس وترديد كلمة « يا لطيف » . والمسكنة وما يتعلق بها من زهد وانقياد وغشية الحال تروق الامم المستعبدة التي لا ترى سبيلاً الى النجاة الاّ بالخضوع وعقد الآمال بظهور المهدي او عودة المسيح او يوم الحساب واما القاعدة الاجتماعية التي يرجى منها الخير العميم فهي الامر بالمعروف كما هي النهي عن المنكر وتلقين القواعد التي تبنى عليها الاستقامة كما هي النقد الصحيح لتقويم الاعوجاج وبث روح العدالة في الافراد كما هي الضرب على ايدي المعتدين حتى لا يتجرأوا على فساد المجتمع ، فترك الحبل على الغارب في مثل هذه الجرائم التي تجترم اجتثاث لاصل من الاصول الجوهرية في الحياة الاجتماعية والسماح عن المعتدي يكاد يجعل المتسامح شريكاً في ارتكاب الجرم ، بل لا بدّ من مقابلة الظلام وجهاً لوجه . وحدث في بعض الحركات الوطنية ان أُرسل احد الزعماء الى السجن فجاء اليه بعض الاطفال يحملون باقة من الازهار اظهاراً لاعجابهم به فقال لهم من وراء قضبان الحديد « آه لو وصلت اليكم لقبلت ايديكم الصغيرة ولأخبرتكم اني الى الخناجر احوج مني الى الازهار »

ويعالج اساطين النهضة الاخلاقية في اوربا هذا الموضوع معالجة دقيقة ، ومن المفيد جداً ان يطلع ابناء العالم العربي على طريقتهم وعلى الغرض الذي يتوخونه من ذكر الاخلاق الايجابية في مقابل الاخلاق السلبية ، ومن خيرة الكتّاب في هذا الباب من الاجتماعيين الاستاذ (اليندر) فيجدر بنا ان ننقل لهم خلاصة منه ننهي بها سلسلتنا هذه (١) فقد قال بعنوان « الاخلاق المسيحية القديمة والحديثة » ما مؤداه : ولما كانت النصرانية في الاصل دين المظلومين

(١) Major Social Problems, p 155.

والهروبين فقد وقفت بالضرورة موقف الخصم تجاه القوي المتعسف بالاقتدار . وفي الاحوال والظروف الخانقة بالمتاعب والمشاق يكون الاستسلام وترك المقاومة في كثير من المواقف خير سياسة تنتهج ، ذلك لان الثورة محكوم عليها بالاخفاق ، والتفكير فيها خارج عن الموضوع . فلما اصبحت الكنيسة وضعاً في صميم الدولة اهمل اصحابها هذه الناحية من تعاليمها ، بيد ان هذا الطابع الاولي بقي ملازماً لها ولم ينمح اثره ، فكانت تُعدّل وتُوسّع بحيث تنطبق على جميع الناس بشكل تواضع وتذلل يتذلله المرء امام الله للذنوب التي ارتكبها . ولما كان هذا العمل ضرورة من الضرورات الملحة في عصر ساد فيه العنف والشدة فكان من الواجب التوسل بالوسائل المرعبة لارهاب الاشرار كبيرهم وصغيرهم ؛ فكانت النتيجة ان الكنيسة اهتمت بالضعف والذل والمسكنة والعجز واعتبرت هذه الصفات السلبية وامثالها مطلوبة في المرء مرغوباً فيها وانها في كثير من الاحوال عنصر جوهري في السيرة المسيحية . قال (بايندر) ومع ما يجوز لهذه الشيم الكمالية من قيمة مقدرة فهي شيم لا تؤدي الى التقدم في الحياة الا بطريقة سلبية يعني انها تمنع الاحتكاك الاجتماعي ولكنها لا تؤدي الى تحسين الاحوال والظروف ، مع ان هذا التحسين هو الضالة المنشودة التي ينادي العالم في طلبها ويستغيث الحصول عليها

وتحسين الاحوال كما نعلم يتطلب البداءة والتشبث والهجوم والمخاطرة وغير ذلك من معاني الاقدام لا الاستسلام والخضوع . وقد غرس صدر النصرانية هذا الخلق السلبي في المؤمنين في جميع القرون ، وحيثما ابيح انحراف من هذه الخطة فالنتيجة كانت هلاكاً كما هو الحال في الفرسان الهيكليين وهم فرقة (الداوية) The Templars في ابان الحروب الصليبية والمؤسسات الاخرى التي انتظمت انتظامهم فان التقوى اضمحلت عندهم وتغلبت عليهم الصفات العسكرية الهجومية

اما في الاعصر الحاضرة فالنتيجة مختلفة عن ذلك اختلافاً بيناً ، فاذا كان ثمت كثيرون لا يزالون يؤمنون بالدين فهم قد اغفلوا شأن الفضائل السلبية التي كانت تعد جوهرية في الاعصر السالفة ، وربوا ما عندهم من تشبث وبداءة واقدام وطلبوا مشاكل الحياة واجبروا الطبيعة بقوة ارادتهم على التسليم بالكنوز المدفونة فيها ، فكانت النتيجة من الناحية الاجتماعية شيئاً طريفاً خليقاً باسترعاء الاسماع والانظار

﴿ عواقب الاخلاق الجديدة ﴾ قال (بايندر) : لقد صرف المجددون الهمم لاصلاح الدين بان نفثوا فيه روحاً هجومية وطالبوا الناس بمساهمة نشيطة في الحياة السياسية والصناعية الحاضرة ، وحيثما تمّ شيء من النجاح في هذا الباب حمل المتمسكون بالطريقة الدينية على ما استجد حملة شعواء قائلين انها شرود عن النصرانية الصحيحة ان لم تكن مروقاً وضلالاً ، وكانت الكتب التي تقول بمثل هذه الاصلاحات الجوهرية موضوع اضطهادهم وحرمانهم

وكان من النتائج الاخرى ان انسلّ عدد كبير من الرجال من عضوية الكنيسة ممن لم يطيقوا البقاء على الخمول والتقاعس ، فقد ودّوا ان يعملوا شيئاً خليقاً بنشاطهم ولكنهم اجبروا ان تصدقوا

وعودوا المرضى ، وقد ترضي مثل هذه الطريقة الرجل الذي تقوم افكاره على الطريقة الجامدة ويعتقد بان الله راض ان ينظم الشؤون على طريقة تحتفظ بالمرضى والفقراء دائماً . اما الرجل الحديث وطريقته في التفكير متحركة لا جامدة وعقيدته الثابتة التحسن المنتظر في الاشياء فيتساءل في نفسه لِمَ يارى يوجد بين ظهرانينا هؤلاء المساكين الذينهم في حاجة مستمرة الى مساعدتنا ؟ ومن المحقق عنده ان الخطأ لن يكون من الجانب الالهي ، اذن فهو من الجانب البشري ، من جانب المجتمع او من جانب الفرد : فلا بد من عمل شيء لاصلاحه يعني يجب ان تلقى على الجاهل دروساً في الصحة والغذاء وان تنبه الجماعة الى التهيؤ والاستعداد اللازم للتفتيش الطبي والنظام الصحي ، اذ لا ضرورة ملجئة تقضي بان يكون ثمة مرضى او فقراء فتى اتبع نظام في التوزيع عادل فاهل الاسراف وفاقدو الحيلة وقليلو التدبير فقط يكونون وحدهم من الفقراء ، والواجب يقضي بان يلقنوا ضرورة العمل حتى اذا مارفضوا السعي في مناكب الارض سيقوا الى المعاهد الخاصة حيث يعزلون عن الناس وتعطى لهم الادوية الناجعة

وكذلك من النتائج التي نتجت السعي لاستدرار الاكف من اتباع الكنيسة العاملين والحصول منهم على الهبات العظيمة لكل عمل يخطر بالبال ، ، فالذين يدافعون عن النظريات الدينية العتيقة يزعمون ان الرجل المتنازل عن جزء من ثروته لغاية خيرية هو رجل يعمل لخدمة الانسانية ، ولكنهم لا يدركون ان الهبات السمحة هي سبب عظيم في استمرار الشرور الاجتماعية الحاضرة . وقد يكون المرء حريصاً على التبرع بعشر ثروته على شرط ان ينال اذناً ربانياً يحلل له امتلاك الاعشار التسعة الباقية والتصرف فيها ، فلا عجب والحالة هذه ان يكثر التحدث كتابة وخطابة عن العلاج في الهبات العظيمة وان يعتبر كثير من الناس صالحين بهذا المعنى

وما دامت الكنائس متعلقة بالنظرية الدينية العتيقة وهي من الاساس نظرية سلبية فلا امل باتخاذ الاجراآت الاصلاحية الجوهرية . لان هذه الكنائس متى تحولت الى ايجابية هجومية ووعظت عن الظلم الصناعي وما اشبهه من الشرور باهتمام خسرت تأييد الرجال الذينهم هدف سهامها وحملاتها ومعنى ذلك بالقلم العريض خسارة فادحة في الموارد التي تعيش منها واغلاق الكثير من المباني الكنسية . والناس قد تعودوا ان ينظروا الى السلبية انها النصرانية فهم يأنفون هذا الاتجاه الجديد الذي لم يألفوه

﴿الدين ودستور السبب والمسبب﴾ : وربما كان اصعب شيء على المرء تعلمه هو ادراك دستور السبب والمسبب ادراكاً عملياً . فهذا الدستور معترف به عند جميع الناس من الناحية النظرية فقط لا من الناحية العملية ، وكان من الجائز تطبيقه تطبيقاً شاملاً اعم لولا الموقف الرسمي الذي تقفه العقيدة الدينية بحيث تجد المخرج من ورطته دائماً والحيل من مفعوله الثابت . واغرب منظر في جميع التاريخ محيّر هو الخطط التي اتخذها الناس لتجنب مفعول هذا الدستور والابتعاد عن منطقة عمله ، واهم ما يدعو الى الاطمئنان وتوقع التحسن في المستقبل هو ان الناس تعلموا — على اقل

تقدير — ان جزاء الوزر الذي يزره المرء لا يمكن تجنبه ولا تحميله على عاتق الآخرين ممن لم يرتكبوه (ولا تزر وازرة وزر اخرى) ؛ فدستور تحسين النسل مثلاً انما يعني هذا في دائرة التوالد لا اقل ولا اكثر — يعني ان القذارة الاجتماعية تنتهي بالوراثة الفاسدة حتماً وسريعاً ولا تخرج من هذه الورطة ولا حيل من مفعولها الثابت لا بالاوهام ولا بالخرافات . وكذلك دستور الاجور الناقصة او الرخيصة فهو يجري على هذا النمط — يعني ان محصولها يكون اضعف نوعاً واحط مقداراً من الاجور الوافية ، فالسبب والمسبب متصلان لا يحول بينهما حائل ، وربما كان اهتمام الناس بحوانيت النسيج القذرة التي يقيم بها العمال المرهقون للمرض الملتصق بالملابس المصنوعة فيها والخوف من عدواه اضعاف ما تحدثه فيهم تلك المجادلات المسهبة حول اخوة البشر وابوة العزة الالهية

﴿ حاجتنا الى التغيير ﴾ : قال (بايندر) ويتوقف الاثر الاجتماعي الذي يتركه الدين الرسمي في المستقبل على قبوله دستور السبب والمسبب ، فاذا ما اغفل الدين هذا الدستور طرد العناصر المفكرة من حظيرة الكنيسة ونفرها من الاشتراك في اعمالها ، كما دلت الحوادث في السنين الاخيرة

ومعظم الخلق هم في حاجة الى الدين وذلك لضعفهم ووهنهم ، واحدى غاياته المعروفة ان يزرع في قلوبهم القوة وفي نفوسهم السعادة ولن يتم ذلك بتعليمهم ان يحملوا تبعة ذنوبهم ونقائصهم على اعناق الآخرين . والطريقة المثلى للاعتبار والدرس الحكيم هي ان يتحمل الفرد وزر عمله . وهذا ينطبق على الفرد كما ينطبق على الجماعة . وتكون المحنة المغرية بارتكاب الشر المرة تلو المرة عظيمة فوق طاقة معظم الناس اذا ما قيل لهم ان هناك طريقة من الطرق لنجاتهم ورفع التبعة عن اعناقهم . وان بعض الناس لا يتعظون حتى من الاختبار ولا يتعظون حتى من المصيبة فلا شيء يعمل لهم سوى تركهم في مراجل الالم : هذا هو دستور الطبيعة وهو دستور الروح . وما من رجل يختصر فيبلغ في الاخلاق المقام المحمود الا بالسعي وصرف الجهد فعلينا « ان ننشد السلامة بالخوف والرعدة » ويريدنا الله ان نتعاون معه على رفع المجتمع الى مستوى اعلى مما هو فيه ولن يتم ذلك الا اذا عرفنا واجبنا وساهمنا في تحمل التبعة

اما الاصرار على ضعفنا وذلنا ولفت الانظار الى شرنا ووهننا فيجعلنا دون العمل الواجب علينا انجازه واقل اهلية للقيام به ، لاننا نحن في الاكثر كما نحن بما يقال لنا ، والاشادة بقابليتنا للعمل ، تساعدنا على انماء هذه القابلية فينا لان « من كان عنده فيعطى » واما من كان خلواً فلا حق له وليس هذا دستوراً كيفياً بل هو سنة كل ارتقاء . والنظر الصحيح الصائب في الالوهية هي انها عامل يعمل دائماً وابداً بنشاط مستمر لترقيتنا ورفاهيتنا ، ولا نستطيع ان نضع في ميزان التقدير والاعتبار من شأن المجهود التي تصرفها هذه القوة المعنوية من اجلنا الا على قدر ما تمثله منها مجهوداتنا ومساعينا وماعدا ذلك فكلام هراء وثرثرة لا طائل تحتها . ولا ندري اننا عيال الله ما لم نقم بالعمل الذي اختصنا به ، والمسألة كلها هي مسألة ممارسة عملية واختبار ذاتي لا مسألة نظر وعقيدة

ويدلنا الاختبار في اعمالنا على دستور السبب والمسبب في جميع نواحي الحياة بل هو حقيقة الحياة نفسها والحقيقة وحدها هي التي تحررنا من رق العبودية . انتهى

﴿ منطقة الدين ﴾ : لا شيء أضرّ بالدين مثل اخراجه عن حدوده والسير به في فياف وقفار قاحلة لم تكن له موطناً ولا لرجاله عهداً ، وقد يضيع فيها كما تضيع الصرخة في الوادي ، وليس من تمام الاخلاص في شيء اننا اذا أحببنا زيداً من الناس مثلاً ان نقول انهُ مهندس وطبيب ومزارع ومحامٍ ورياضي وفلكي وجيولوجي وجغرافي وكيماوي وغير ذلك من النعوت الفنية وغير الفنية في آنٍ واحد علاوة على ما يتحلى به من سمو الاخلاق، فلمَ يا ترى نجوّز لانفسنا ان نكون اكثر كرماً وتسامحاً في مسائل الدين ؟ وفي الاسلام نصّ صريح لمؤبري النخل ان يؤبروه كما دلهم الاختبار لانهم أعلم بدنياهم، ولان مثل هذه الفنون العملية ليست من الدين في شيء فلمَ نحاول حشرها وحشر غيرها فيه يا ترى ؟

ولم تخلُ اوربا نفسها من الافراط والغلوّ في توسيع منطقة الدين مما حمل كثيراً من الكتّاب الغربيين على التفريط ورد الفعل، يدلنا على ذلك ان كاتباً اجتماعياً معتدلاً كالاستاذ (ديلي) يدرّس كتابه في بعض الجامعات الدينية والمعاهد الاخلاقية يقول في هذا الصدد [1] « ان ما اشتهر به الوضع الديني من البقاء والاستمرار تاريخياً على رغم الحوادث يتجلى لنا متى نظرنا بعين الاعتبار الى المصالح المتعددة التي شملها ، فهو باعتباره فلسفة قد استحدث لنفسه نظرية كونية عالمية فرضها بان وحدة جميع الاشياء في آله واحد او آلهة متعددين هم خلقوا الكائنات وادارو امورها وزرعوا فيها الحياة وارشدوها لبلوغ غاية معينة ، وباعتباره علماً قال انهُ بواسطة الوحي قد حصل على الدساتير الجوهرية التي تسيطر على المعارف ، حتى انهُ طالب الناس في بعض الايام ان يطبقوا العلم على هذا الوحي الذي أتى به ، واستنّ في الاخلاق سنناً ليسيروا عليها قائلاً انهُ بعمله هذا انما يعمل بسلطة الهية ، وأبدى حقهُ ايضاً في املاء القواعد العملية في الشؤون الاقتصادية والمنزلية والسياسية والتهذيبية وان له ان يدير الطرائق التي تجري عليها . وبديهي ان مثل هذه الدعاوى العظيمة والسلطات الجسيمة لا تسلم بها العوامل الاخرى في المجتمع دائماً » ، ذلك لان الفلسفة والعلم يدافعان عن حقهما في اذاعة النتائج التي وصلا اليها حتى لو كانت هذه النتائج مناقضة للاصول اللاهوتية ، وكذلك علم الاخلاق الاجتماعي فقد اخذ يطبع الكنيسة بطابعه فيما يتناول السيرة الاجتماعية ، ولم تعد الاصول التهذيبية التعليمية ترضى الخضوع للقواعد الايمانية ، وترى الكنيسة والحكومة تفترقان والقانون المدني يدير الاسرة، واما الحركة الاقتصادية فهي كثيرة التشعب وشديدة التعقد بحيث لا تستطيع الكنيسة التسلط عليها . فالكنيسة مضطرة في مثل هذه الاحوال الملحة اما ان تصبح مناقضة للعصر الذي تعيش فيه متأخرة عنهُ واما ان تعمل لغاية في النفس أسمى وأرفع بعيدة عن المشاغل والمطالبات المملة ساعية للقيام بالواجب مرة ثانية باعتبارها هداية منزلة تهدي المشاعر الكمالية العليا التي تغلي في صدر الانسان »

(1) Sociology, p. 143.

ولما حمل (برنارد شو) على «الكتاب المقدس» حمل على ما يدعيه اصحابه فيه من الدعاوي الطويلة العريضة الفنية وغير الفنية الخارجة عن منطقة الدين كما اسلفنا ولكنه قال وهو محق في قوله[1] « ان هذا الكتاب وان عُدّ بالمقاييس العلمية مهجوراً من سائر النواحي الا انه من ناحية واحدة يحتفظ بقيمته وذلك باعتباره سجلا لنشوء الفكرة الالهية » — فكرة اول سمي سماه الانسان المتمدن لتعليل مصدر الكائنات والحكمة من وجودها

. وفي الحق ان هذه الفكرة هي مركز الثقل في جميع الثقافة التي مرّت عليها العصور وعليها يرتكز الدين في جهاده المتواصل الثابت وهي هي التي جعلت هذا البون الشاسع بين الانسان والحيوان ، والفرد بالغاً ما بلغ من العلوم المادية واوسع ما احاط من سننها ودساتيرها لا يكون قد ازدان بالموهبة الانسانية الجوهرية اذا هو لم يتساءل في نفسه من اين اتى والى اين ذاهب ، وسيبقى هذا السؤال عاملاً من اقوى العوامل في الحث على التتبع والتدقيق وكشف المخبآت ، وربما رجع اليه الفضل الاكبر من الناحية التاريخية في ايجاد العلوم واستحداث الفنون وتوجيه الانظار الى الحكمة . ويعلو الدين او ينحط بقدر التنزيه الذي تتحلى به تعاليمه . وما دام هذا السؤال موضوع الدين الاساسي فالدين طود ثابت ما زعزعته في الماضي الثورة الفرنسية ولا تزعزعه في الحاضر الثورة الكمالية ، وانما الخطر عليه كل الخطر هو الخروج به عن المنطقة التي خلق ليعمل فيها ، واستئثار النفعيين والجهلاء الاحتكاريين للنفوذ الذي يتمتع به . ثم اذا صدر مثل هذا السؤال عن قلب يلتهب شوقاً الى ادراك كنه الحقيقة والاحاطة بأسرارها فهو يدل على ان نفس صاحبه ليست حيوانية بهيمية بل هي نفس تزدان بالاخلاق والاخلاص ايضاً وهذا ما يجدُ الاجتماعيون ليجعلوه من جوهر الدين ، ونحن لا ننكر ابداً ان اهل التتبع يميلون اليوم الى الفصل بين الاخلاق والدين من الوجهة العلمية ولكن العمليين من الاجتماعيين يستعينون بالدين لتقويم الاخلاق ، ذلك لان الاتصال بينهما اتصال وثيق ، وجميع الاديان الراقية الكبرى طافحة بالحث على مكارم الاخلاق ، والدين الذي لا يجعل الاخلاق الصحيحة غرضاً من اغراضه الجوهرية لا يهم الجمعية البشرية الاحتفاظ به

ودلنا تاريخ الاديان الراقية على ان الالوهية تجلت في النفوس من الناحية العقلية حكمة واستقصاء ، ومن الناحية الفنية جلالاً وجمالاً ، ومن الناحية الروحية طهارة واخلاقاً ، فلا غرو ان يكون لها هذا السلطان الباهر وهذه القوة الساحرة ، ولا يزال الاتقياء في كل عصر ومصر يتناظرون الكاهنة (بيثيا) لما قالت في مكمن (دلفي) في بلاد اليونان منذ عشرات القرون « ايها الغريب اذا كنت طاهر النفس فادخل معبد الله القدوس مكتفياً بلمس ماء التطهير ، فالتطهير سهل على الصالحين ولكن البحر المحيط جميعه بأنهاره عاجز عن غسل الادران من الرجل الشرير »

(1) The Adventure of the Black Girl in her Search for God, p. 69.